رَفَعَ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

رسائل تربوية
١

حجابُكِ أيتها المرأة

أمَلٌ ونِعْمَة لا ألمٌ ونِقْمَة

بقلم
الأديب البليغ مُصطفى لطفي المَنفلوطي
المتوفى سنة (١٣٤٣هـ) رحمه الله

اعْتَنَى بها وضَبَطَ نَصَّها
علي حسن علي عبد الحميد
الحلبي الأثري

دار ابن القيم

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

حجابك أيتها المرأة
أملٌ ونعمةٌ لا ألمٌ ونقمة

الطبعة الأولى
١٤٠٨ هـ.



هاتف : ٨٢٦٨٣٤٣ ـ ص.ب : ١٨٦٥ ـ الدمام ـ رمز بريدي : ٣١٩٨٢ ـ الدمام ـ جنوب الاستاد الرياضي ـ
المملكة العربية السعودية

رسائل تربوية
(١)

حجابك أيتها المرأة

أملٌ ونِعْمَة لا ألمٌ ونِقْمَة

بقلم
الأديب البليغ مُصطفى لطفي المَنفلوطي
المتوفى سنة (١٣٤٣هـ) رحمه الله

اعْتَنَى بها وضَبَطَ نَصَّها
علي حسن علي عبد الحميد
الحلبي الأثري

دار ابن القيم

بسم الله الرحمن الرحيم

ـ مُقَدِّمَةٌ فيها بَيَان ـ

إنَّ الحمدَ لِلّهِ نَحْمدُهُ وَنَستعينُهُ ونستغفره، ونعوذُ باللّهِ مِنْ شُرورِ أَنْفُسِنا، ومِن سيِّئات أَعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللّهُ فَلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِل فلا هادِيَ له.

وأَشهدُ أَنْ لا إِله إلّا اللّهُ وحده لا شريك له.

وأَشهدُ أَنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ.

أَمَّا بعدُ:

فَبعيداً عَنْ خِلافاتِ المُتَفَقِّهةِ، ونِقاشاتِ أَهْلِ الحديث، وجِدالاتِ المُفَسِّرين: أُقَدِّمُ هذه الرِّسالَةَ للقُرَّاءِ جميعاً:

للمُسْلِمين: كي يَزْدادوا إيماناً، ويَعْلموا أَنَّ ما هُم عليه لَهُوَ الحقُّ المُبينُ، والصِّراطُ المُسْتَقِيمُ..

وِلِلْمُسْتَسْلِمين: كي يَقِفـوا عن تَرَدُّدِهم، ويَبْتَعِـدوا عَنْ تَخاذُلِهِم، ويَكُفُّوا عَنْ تَلَجْلُجِهِم!.

وَلِلْمُسْتَريبين: حتى يَقْطَعوا رَيْبَهم، وَيُؤْمِنوا بِرَبِّهم!.

ولِغَيْرِ المُوَحِّدِين: حتَّى تكونَ حُجَّةً جَديدةً مِنْ الحُجَج التي تَصُكُّ آذانَهم وهم لها غيرُ عابِئِين!.

أُقَدِّمُها للآباءِ: كَيْ يَعْرِفوا قَدْرَ العِفَّة!.
وَلِلأُمَّهاتِ: كَيْ يتنبَّهْنَّ إلى خَطَر السُّفور!.
وللبناتِ: كَيْ يَسْتَيْقِظْنَ مِنْ غَفْلَتِهِنَّ!.
وللنِّساءِ: كَيْ يَكْفُفْنَ عَنْ تَقْلِيدِ الغَرْبِ الكافِرِ بفُجورِهِ، وعُهْرِهِ، وخَلاعَتِهِ!.

وللرِّجال: كَيْ يعرفـوا خَطَرَ الاخْتِـلاطِ، وفتنَةَ النِّسـاءِ، وثَمَرَةَ الانْفِتاح المزعوم!.

وللأُمَّة كُلِّها: كَيْ تتناصَح فِيمَا بَينها، فَتَأْمُرَ بالمعـروف وتَنْهىٰ عَنْ المُنْكَر، فإنْ لم تَفْعَل!! فَمَصِيرُها اللعنةُ؛ مَصِيرُ بَني إسرائِيلَ فيما قال عنهم رَبُّنا سبحانه في كتابـه: ﴿لُعِنَ الّذِينَ كَفَروا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسـانِ دَاوُدَ وَعِيْسَى ابنِ مَرْيَمَ ذٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدونَ كَانُوا لا يَتَنَاهَـوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩].

أُقَدِّمُ هٰذهِ الرِّسالةَ لِتَحْقيقِ قَوْلِ اللّهِ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ: ﴿يَا أَيُّها النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩]. وبالتّالي: تَنْفيذِ حُكْمِهِ سُبحانه دونما تَرَدُّدٍ لِقَوْلِهِ عَزّ شَأْنه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُم ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [النساء: ٦٥].

أُقَدِّمُها وفي القَلْبِ حَسْرَةٌ، وفي النَّفْسِ مَرارةٌ وفي العَيْنِ دَمْعَةٌ، على ما نَحْنُ فيهِ مِنْ واقعٍ أَسِيفٍ كَسِيفٍ، لَيْسَ يُجْدي فيه الرِّثاءُ، وإِنّما التَّقْوىٰ والعَمَلُ، والجِدُّ بِلَا مَلَل!.

وهٰذه الرسالةُ: قِصَّةٌ، وليست قِصَّةً مِمَّا نَسْمَعُهُ أو نُسْمِعُهُ!! إنَّما هي قِصَّةٌ واقعيّةٌ ذاتُ عِبْرة، تَذْرِفُ لها عيونُ العاقِلين ـ العاقِلُون فقط ـ عَبْرة! كَمَا قال سُبْحانَه في كِتَابِهِ: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]. وقِصَّتُنا هٰذهِ دارَتْ أَحداثُها في أَوائِلِ هذا القَرْنِ، قَبْلَ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ عَامَاً، فَدَبَّجها كاتِبُها بِمِدَادِهِ ودُمُوعِهِ، حَتّى غَدَتْ قِطْعَةً أَدبيَّةً رائِعَةً كَأَنَّما صِيغَتْ مِنْ تِبر.

وَلَسْتُ في هٰذه الكلماتِ ٱلْوَجِيزةِ الَّتي أُقَدِّمُها بينَ يَدَيِ

القِصَّة بِقَادِرٍ أَنْ أَنُفُثَ جميعَ ما يُكِنُّهُ صَدْري أَوْ تَكْتُمُهُ نَفْسي، وَلَسْتُ أَكْتَفِي بِمَا كتَبتُ مِمَّا لعلَّه أَنْ يُذَكِّرَ أَوْ يَرْدَعَ أَوْ يَعظَ، بَلْ أَزِيدُ عَلَيْهِ بياناً أَنْ أَقُولَ مُحَذِّراً، ناقِلاً ما كَتَبَهُ بعضُ الفُضَلاءِ[1]:

قال اللّهُ تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ والْبَنِين﴾ الآية [آل عِمران: ١٥]، فالنّاسُ مَفْتونون بِحُبِّ الشَّهَواتِ، ثُمّ ذَكَرَ اللّهُ لنا هذه الشَّهَواتِ، فَقَدَّم النِّساءَ لِعَرَاقَتِهِنَّ في الشَّهْوةِ، ولأنّهنّ حبائُل الشيطانِ، ولأنّ الرجالِ إنّما دخلَ عليهِمُ الخَلَلُ من قِبَلِ هذه الشهوةِ.

ولذا قال النبيُّ ﷺ: «ما تركتُ بعدي فِتنةً أَضَرَّ على الرجالِ من النساء»[2]. لأنّ في فسادِ المرأةِ وتحلُّلِها من حُدودِ الشرعِ إفساداً للمُجْتَمَعِ كُلِّهِ، لا سِيَّما في مُجْتَمَعٍ يُطْلِقُ لها العَنانَ، ويُرْخِي لها الرَّسَنَ، ولا يُنْكِرُ عليها شيئاً من ذلك بل يُشَجِّعُها بِكُلِّ السُّبُلِ باسْمِ الحضارةِ والتقدُّمِ، وما هِيَ في الحقيقةِ إلاّ قَذارةٌ ودياثةٌ وتخلُّفٌ.

لقد أضحى خروجُ بناتِ المسلمينَ مَتَبَرِّجاتٍ سافِراتٍ،

---

(١) «صون المكرمات» (٣٢ ـ ٣٨) بتصرُّف.
(٢) رواه البخاري ومسلم عن أُسامة بن زَيْد.

قد خَلَعْنَ الحجابَ، وخَلَعْنَ بخلعهِ الحياءَ، مُرْتَدِياتٍ الملابسَ القصيرةَ الشفّافةَ حقيقةٌ مُرَّةٌ، لا بُدَّ من تغييرها وإلّا فستأتي على المُجْتَمعِ بِأَسْرِهِ، تَسْتَأْصِلُهُ، وتقلَعُ خُلُقَهُ من جُذورِهِ!.

ففي خُروجِهِنّ بهذه الصورةِ إغواءٌ للشبابِ المسلمِ: يُحَطِّمُ نَخْوَتَهُ، وَيَقْضِي على رُوحِ العِزَّةِ في نفسهِ، والرُّجولةِ في تَصَرُّفاتِهِ.

ولقد أَخْبَرَ المصطفى ﷺ وهو الصادقُ المصدوقُ بخروجِ هذا الصِّنفِ من النساءِ الذي يُضِلُّ الناسَ وَيَجْرُفُهُمْ عن جادّةِ الصوابِ فقال: «صِنْفانِ من أهلِ النارِ لم أَرَهُما، قومٌ مَعَهُمْ سِياطٌ كأذنابِ البقرِ، يَضْربونَ بها الناسَ، ونساءٌ كاسِياتٌ عارِياتٌ، مُميلاتٌ مائلاتٌ، رُؤوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ البُخْتِ المائلةِ، لا يَدْخُلْنَ الجَنَّةَ ولا يَجِدْنَ ريحَها، وإنّ ريحَها لَتُوْجَدُ مِنْ مَسيرةِ كَذا وكَذا»[1].

وهذه علامةٌ من علاماتِ نُبُوّتِهِ ﷺ، فقد وَقَعَ الأمرُ كما أخبر، وَوَصَفَهُ وَصْفَ المُعايِنِ له، بل لو وَصَفَهُ من عاينَه

---

(١) رواه مسلم عن أبي هُريرة.

لَعَجِزَ عنه، فما أَفْصَحَ لسانَهَ وأَبْلَغَ بيانَه، صلواتُ اللّهِ عليه وسلامُهُ ﴿إِنْ هُوَ إِلاّ وَحْيٌ يُوْحَىٰ﴾ [النجم: ٤].

وَأَوّلُ صفةٍ لهؤلاءِ النِّساءِ أَنّهُنّ «كاسياتٌ عارياتٌ» فَهُنَّ يَلْبِسْنَ ثياباً تكشِفُ شيئاً من أجسادِهن (في بعضِ الأحيانِ مُعْظَمَ أجسادِهِنّ) لإظهارِ جمالِهِنّ ولإِغواءِ الرجالِ، فهن كاسياتٌ ولكنّهنّ في الحقيقةِ عارياتٌ، وقيلَ: يَلْبِسْنَ ثِياباً رِقَاقاً تَصِفُ ما تَحْتَها، وكلاهُما واقعٌ مُتَحَقِّقٌ، فضلاً عن الصفاتِ الأُخرى المذكورةِ فيهنّ!.

ولا شَكّ أنّ خروجَ النِّساءِ بهذا العُرْيِ والابتذالِ سيكونُ أكبرَ مُشَجِّعٍ على انتشارِ الفاحشةِ في المجتمعِ وشُيوعِها، وقد قالَ تعالى في حَقِّ من يُحِبُّونَ إشاعةَ الفاحشةِ بين المُؤْمنين: ﴿إِنَّ الَّذينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشيعَ الفَاحِشَةُ في الّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ في الدُّنْيا وَالآخِرَةِ واللّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

فهذا وَعِيدٌ عظيمٌ لِمَنْ أَحَبَّ شُيُوعَ الفاحشةِ فكيفَ بمن تَعَمَّدَ إشاعَتَها ونَشْرَها بينَ المسلمينَ، وجَنَّدَ لها وسائلَ الإعلامِ، وَرَصَد لها الميزانيّاتِ الخياليةَ!.

وما نراه اليومَ من انتشارِ حوادثِ الاغتصابِ والزِّنَا ما هو

إلّا نتيجةٌ لهذا التحلُّل والتفسُّخِ، وسنرى المزيدَ المزيدَ ما دام الأَمرُ على هذا الحالِ، فلا دينَ يمنَعُ، ولا سُلطانَ يَزَعُ!!.

وقد فَطِنَ أعداؤنا لهذه القضيّةِ، واسْتَخْدَموا المرأةَ كسلاحٍ لِتَقْويضِ كُلِّ القِيَمِ الأخلاقيّةِ في بلاد المسلمينَ، وكانت المرأةُ رأسَ الحَرْبَةِ في هذه الهَجْمةِ الإباحيّةِ الخبيثةِ.

قال أحدُ كُبَراء الماسونيةِ: «كأسٌ وغانيةٌ تفعلانِ في تَحْطيم الأُمّة المُحَمّديةِ أكثرَ مِمّا يفعلُه ألفُ مدفعٍ، فَأَغْرِقوها في حُبِّ المادّةِ والشهواتِ».

وفي «بروتوكولات حُكَماء صهيون»: «يَجِبُ أَنْ نَعْمَلَ لِتَنهارَ الأخلاقُ في كُلِّ مكانٍ فَتَسْهُلُ سيطرتُنا، إنّ «فرويد»[1] مِنّا، وسيظل يَعْرِضُ العلاقاتِ الجنسيةَ في ضَوْءِ الشَّمْسِ لِكي لا يَبْقَىٰ في نظر الشابِّ شيءٌ مُقَدَّسٌ، ويُصْبحُ هَمُّهُ الأكبرُ إرواءَ غريزتهِ الجنسيةِ، وعندئذٍ تنهارُ أخلاقُهُ».

وسارَ أعداؤنا في تنفيذِ مُخططاتهم التخريبيّةِ في بلادنا سيراً حَثيثاً، واسْتَطاعوا أنْ يُجَنِّدوا من أبناءِ المُسْلِمين مَنْ

---

(١) هو حاملُ لواءِ الإباحيّة والدعوة المكشوفة إلى الجنس!.

يتولّى تنفيذَ هذه المخططاتِ، وينافِحُ عنها، ويُناضِلُ من أجلِها أشدَّ ما تكونُ المُنافَحة والمُناضَلة، وسُخِّرتْ وسائلُ الإعلامِ على اختلافِها من إذاعة وتلفزيون وسينما وصُحُف... إلخ لتحقيقِ أهدافِ هذه الهجمة الإباحيّةِ وَنَجَحوا في ذلك أيَّما نجاح، حتى أوصلوا الفسادَ إلى العذراء في خِدْرِها، ووجدوا لهم آذاناً صاغية مطيعة، فخرجت جمعيات نسائيةٌ ماسونيّةٌ تَبُثُّ سُمومَها بين بناتِ المسلمينَ، وتزعُمُ أنّها تطالبُ بحقوقِهِنّ «المهضومة»، وإلى المساواةِ مع الرجالِ في كُلِّ شيءٍ، وانقلَبَتِ الأوضاعُ رأساً على عَقِب، فأصْبَحَ العُهْرَ تَقَدُّماً، والعَفافُ تَخَلُّفاً، والغَيْرَةُ جُموداً، والدِّيَاثَةُ تَطَوُّراً، فلا حَوْلَ ولا قُوَةَ إلّا بالله.

كُلُّ هذا ما كان لِيَحْدُثَ لو أنّنا مَعْشَر المُسْلِمين تَمَسَّكْنا بدينِنَا وهدْيِ نَبِيِّنا ﷺ وَأَدْرَكْنا خَطَرَ هذه الهجمةِ وحقيقَتَها ومَغْزاها، وجاهَدْناها وما سانَدْناها، لكنّنا اغْتَرَرْنا بتلك الشعاراتِ الزائفةِ والدعاوى البرّاقةِ، وَظَنَنَّا بأنّ الطريقَ إلى الحضارةِ لا يَمُرُّ إلّا على حسابِ دينِنا وشَرَفِنا، ثُمّ أَضحى حالُنا كما تَرى من ذُلٍّ وَضَياعٍ وانحرافٍ في الأخلاقِ واختلالٍ في الموازينِ.

عَلَيْنا جَميعاً أنْ نَعْتَزَّ بإسلامِنا وَبِآنْتمائِنـا إلى خَيْر أُمَّـةٍ قـال الله فيها: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْـرِجَتْ للنَّـاسِ تَـأْمُـرونَ بِالْمَعْروفِ وَتَنْهَونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ باللّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وليسَ الانْتِماءُ إلى هذهِ الأُمَّةِ انتماءً اسْمِيّـاً، بل هـو آنْتِماءٌ عَمَليٌّ تَتَجَسَّدُ فيه شخصيةُ المسلمِ العزيزةُ التي تأنفُ وتأبى أن تَتَشَبَّهَ بِحُثالَةِ الْخَلْقِ من يَهودٍ ونصارىٰ ومُشْرِكينَ، فالمسلمُ له سَمْتٌ وهَدْيٌ خَاصٌّ يُعْرَفُ به، ويتميّزُ به عَمّن سـواه في شُؤون حياتـه كلها: صَغيـرِها وكَبيـرِها، عَـظيمِها وحَقيرِها.

فعلى كُلِّ مَنْ له عَقْلٌ، أو به ضميرٌ، أو فيهِ إحساسٌ أنْ يتـذكّر قَـولَ اللَّهِ سبحانـه وتعـالى: ﴿يَـا أَيُّهـا الّـذينَ آمَنُـوا قُـوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُها النَّاسُ وَالحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللّهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

فكُـلُّ مسلم يجبُ أنْ يَعْلَمَ أنَّ اللّهَ قَـدْ جَعَلَ أهلَهُ أَمـانةً في عُنُقـهِ، فَكَما يتـوجّبُ عليـه إعـالَتُهُمْ وَكِسْـوَتهُم والإنفـاقُ عليهم والمحـافظةُ على صِحَّتِهم فيتـوجّبُ عليه قبـل هـذا كُلِّهِ أن يُجَنِّبَهُمُ السُّبُلَ المُؤَدِّيَةَ إلى نارِ جهنَّمَ، وهٰذه مسؤوليةٌ عظيمةٌ

مُلْقَاةٌ على عاتقِ أولياءِ الأُمورِ، وإنّ الله سائلُهم يومَ القيامةِ عن هٰذه الأمانةِ: أَحَفِظُوها وَأَدَّوْا حَقَّ اللّهِ فيها أم ضَيّعوها وأهملوها؟!».

ومصِدْاقاً لِمَا قَدَّمتُه، وتَوْكيداً لِما أسْلَفْتُه تَأْتي هذه القِصَّةُ الواقعيَّةُ لِتُبَيِّنَ مَآلَ مَنْ يغترُّ بِسَفَاسِفِ مَظَاهِرِ الغربِ، ثُمّ.. لَمَّا تَقَعُ الواقِعَةُ.. ويَعْلَمُ ما اقْتَرفت يَداهُ بِرِضاه... يَبْكي دَمَاً، ويَدْمَعُ قَيْحاً، ويموتُ كَمَداً، عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَهُ ذلك.. وَلَيْس بنافِعِهِ، إنّما الّذي يَنْفَعُهُ هو الْتِزامُهُ بِكُلِّ خُلُقٍ سَوِيٍّ وبِكُلِّ فِعلٍ مَرْضِيٍّ، والبُعْدُ عن كُلِّ رَدِيٍّ، أو غَيْرِ رَضِيٍّ!.

ولا يكونُ هذا كُلُّه إلّا بأَنْ يُحافِظَ الوالدانِ على بَنَاتِهِم مُكَرَّماتٍ مَصُوناتٍ مُنْذُ نُعومةِ أَظْفارِهِنّ، فلا يَتْرُكوهنّ حتّى إذا كَبِرْنَ عَجَزوا عن ذٰلك، وفات الأَوانُ، وَذَهَبَ وقتُ السَّيْطرة، وزَمَنُ التربية!.

لا سيّما ونحن اليوم ـ كما هو مُشاهَدٌ ـ في مُجْتَمَعٍ يُهاجِمُ الحِجَابَ صباحَ مساءَ، ويَدْعو ـ باطناً وظاهراً سِرّاً وعلانيّة ـ إلى الفسادِ والانْحِلالِ. فالحِجَاب رَمْزُ عِفَّةِ المرأةِ، وشِعارُ طهارَتها، فَعَلَيْها ـ إن لبِسَتْهُ ـ أَنْ تُحافِظَ عَلَيْهِ وتُذَكِّرَ بهِ وتدعو إلَيْهِ، أَمّا إذا كانت كسائر نِسْوَةِ عَصْرِنا اللّواتي لا يَعْرِفْنَ

إلّا ما يَرَوْنَهَ في التِّلفازِ غَفْلَةً وتِيهاً وبُعْداً عن الجادّة! فعَلَيْها أَنْ تُسارِعَ اللَّحْظَةَ والتَّوَّ لِخَلْعِ ما تَلْبَسُهُ مِن لِبَاسِ الكَفَرَةِ والمُشركين، لِتَلْبَسَ بِطُهْرٍ وَنَقاءٍ، حِجَابَ الإيمانِ والْيَقين.

فَإِنْ لم تَفْعَل النِّساءُ هذا ـ وليس يُجْدي سواه ـ فَسَوْف يَصِرْنَ نُهْبَةً لأَنْيَابِ الذِّئابِ البشريّةِ، ومَخَالبِ أَشباهِ الوُحوشِ، الَّذين لا يَتَجاوَزُ نَظَرُ أَحدِهم أو تفكيرُهُ، ما بَيْنَ رِجْلَيْهِ!.

فحينئذٍ.. لا نسمَعُ إلّا اسْتِنْكاراتٍ أَو اسْتِهْجاناتٍ أَو نَحْوه مِمَّا لا يُغيِّر مِنَ الواقِعِ شيئاً، أَو يُصْلِحُ ما أَفْسَدَتْهُ علينا عقولُنا وأَهْواؤنا!!.

... لقد أطَلْتُ ـ نوعاً ما ـ في الكلمةِ الَّتي لم تَكُنْ ساعةَ أَمْسَكْتُ الْقَلَم إلّا سُطوراً. وكما قِيلَ: ليسَ بُدٌّ مِمّا لا بُدَّ منه!.

فإلى القِصَّةِ، وإلى وقائِعِها، وإلى عِبْرَتِها لِنَعْرِف قيمةَ ما منحنا اللَّهُ سبحانه من إيمان، وَلِنَعْرِفَ قَدْر ما وَهَبَنا من الْتِزام.

وآخرُ دعوانا أَنِ الحمدُ لِلَّهِ ربِّ العالَمين[1].

---

(١) وكاتبُ القصّةِ هو الأديبُ المصرِيُّ الشهيـر مصطفى لـطفي المَنْفَلوطي، وُلِـدَ في مَنْفلوط (من مُدُن الـوجـه القِبلي بمصـر) سنـة (١٢٨٩ هـ) وتعلّم في الأزهـر، ثم اتّصَل بـالشيخ محمـد عبده، لـه مؤلّفات عدّة، يغلبُ عليها الالتزامُ، وفيها روحٌ دينيّةٌ ظاهرة، فانظر إليه يقولُ في كتابه «النظرات» (٣/ ٢٥٩): «.. فاللّهُ يعلمُ أنّي ما ألممتُ في حياتي بمعصية إلّا وترددتُ فيها قبل الإلمام بها، ثم ندمتُ عليها بعد وقوعها، ولا شككتُ يوماً من الأيام في آياتِ اللّهِ وكُتُبِهِ، ولا في ملائكتهِ ورُسُلهِ، ولا في قضائهِ وقَدَرهِ، ولا أذعنتُ لسُلطان غير سُلطانِهِ، ولا لعظمةٍ غير عظمتهِ...» إلخ.

توفي سنة (١٣٤٣ هـ) رحمه اللّهُ تعالى وغَفَرَ له.

ترجمتُه في «الأعلام» (٧/ ٢٣١) للعلّامة خير الدين الزِّركلي.

بسم الله الرحمن الرحيم

ذَهَبَ فُلانٌ إلى أُورُبّا وَمَا نُنْكِرُ مِنْ أَمْرِهِ شيئاً، فلبِثَ فِيهَا بِضْعَ سِنينَ.

ثُمَّ عَادَ وَمَا بَقِيَ مِمّا كُنّا نَعْرِفُهُ مْنِهُ شَيْءٌ.

ذَهَبَ بِوَجْهٍ كَوَجْهِ العَذْراءِ لَيْلَةَ عُرْسِها، وعَادَ بوَجْهٍ كَوَجْهِ الصَّخْرةِ المَلْساءِ تحتَ اللَّيْلةِ المَاطِرَةِ.

وَذَهَب بِقَلْبٍ نقيٍّ طَاهِرٍ يَـأْنَسُ بالعَفْوِ ويستريحُ إلى العُذْرِ، وعادَ بقلبٍ مُلَفَّفٍ مَدْخولٍ لا يُفارِقُـهُ السَّخَطُ على الأَرضِ وساكِنِها، والنِّقْمَةُ على السماءِ وخالِقها.

وَذَهَبَ بنفسٍ غَضَّةٍ خاشعةٍ ترى كُلَّ نَفْسٍ فَوْقَها، وعادَ بنفسٍ ذَهَّابةٍ نَزَّاعةٍ لا تَرى شيئاً فَوْقَها، ولا تُلْقي نَظرةً واحدةً على ما تحتَها.

وَذَهَب برأسٍ مَمْلوءٍ حِكْمةً وَرَأْياً، وعادَ بِرأْسِ التِمثالِ المَثْقوبِ لا يَمْلَؤُهُ إلاّ الهواءُ المُتَرَدِّدُ.

وَذَهَب ومـا على وَجْـهِ الأَرْضِ أَحبُّ إليـهِ مِنْ دينـهِ وَوَطَنِهِ، وعادَ وَمَا على وَجْهِها أَصْغَرُ في عينهِ منهما!.

وكنتُ أرى أَنّ هـذه الصُّوَرَ الغَـرِيبَةَ الّتي يَتَـراءىٰ فيهـا هؤلاءِ الضُّعفـاءُ مِنَ الفِتْيانِ العـائـدينَ من تلكَ الـدِّيَـار إلى أَوْطانِهِمْ إنّما هيَ أَصْباغٌ مُفْرَغَةٌ على أَجْسامِهم إفْرَاغاً لا تَلْبَثُ أَنْ تَطْلُعَ عليهاٰ شَمْسُ المَشْرقِ فَتَمْحُوها، كَأَنْ لم تكُن، وأَنَّ مكان المدنْيـةِ الغربيّـة من نُفوسِهم مَكـانُ الوجـهِ من المرآةِ؛ إذا انْحَرَفَ عَنْها زالَ خيالهُ مِنها.

فلم أَشَأْ أَنْ أُفارِقَ ذلك الصَّديقِ، وَلَبِسْتُهُ على عِلّاتِهِ وفاءً بِعَهْدِهِ السَّابقِ، وَرَجاءً لِغَدِهِ المُنْتَظَـرِ مُحْتمِلاً في سبيلِ ذلك مِنْ حُمْقِهِ وَوَسْوَاسِهِ وفَسَادِ تَصَوُّراتهِ، وَغَرَابَةِ أَطْـوارهِ، ما لا طَاقَةَ لِمِثْلي بِاحْتَمالِ مِثْلهِ.

حتّى جـاءَني ذاتَ ليلةٍ بـداهِيَـةِ الـدَّوَاهي، وَمُصِيبَـةِ المَصائِبِ، فكانَتْ آخِرَ عَهْدي به!!.

دخلتُ عليهِ فرأَيتـُه واجِماً مُكْتَئِبـاً، فَحَيَّيْتُهُ، فَـأَوْمَأَ إليَّ بالتحيةِ إيماءً فسألته: ما بالُه؟.

فقـالَ: ما زِلْتُ مُنْذُ الليلةِ مِنْ هـذهِ المَرْأَةِ في عَنَـاءٍ لا أَعْرفُ السَّبيلَ إلى الخلاصِ منه، ولا أَدْري مَصِيرَ أَمْري فيهِ.

قلتُ: وأَيُّ امرأةٍ تريدُ؟.

قالَ: تِلْكَ الّتي يُسَمِّيها النَّاسُ زَوْجَتي، وَأُسَمِّيها الصَّخْرَةَ العاتِيَةَ الْقَائِمَةَ في طريقِ مَطَالبي وآمالي.

قلتُ: إِنّـكَ كثيرُ الآمـالِ يا سيّـدي، فعن أَيِّ آمالِـكَ تُحَدِّثُ؟.

قال: ليسَ لي في الحياةِ إلّا أَمَلٌ واحِدٌ، وهو أَنْ أُغْمِضَ عَيْني ثُمَّ أَفْتَحُها فلا أرى بُرْقُعاً[1] على وَجْـهِ امْرَأةٍ في هـذا البَلَدِ.

قُلْتُ: ذلِكَ ما لا تَمْلِكُهُ، ولا رَأْيَ لكَ فيهِ.

قـال: إنَّ كَثِيراً مِنَ النّـاس يَرَوْنَ في الحِجَـابِ رَأْيي، وَيَتمنَّوْنَ في أَمْرِهِ ما أَتَمَنّىٰ، ولا يَحُولُ بينَهم وَبينَ تَمزْيقهِ عن وُجوهِ نسائِهِمْ وإبرازِهِنَّ إلى الرِّجالِ يُجَالِسْنَهم كمـا يَجْلِسُ بَعْضُهُنَّ إلى بعضٍ إلّا العَجْزُ والضَّعْفُ والهَيْبَةُ الّتي لا تَزالُ

---

(١) هو الّذي تستر المرأةُ به وَجْهَها (ع).

تُلِمُّ بِنفْسِ الشَّرْقيِّ كُلَّما حَاوَلَ الإقْدامُ على أَمْرٍ جَدِيدٍ، فرأَيْتُ أَنْ أَكونَ أَوَّلَ هادمٍ لهذا البناءِ العاديِّ[1] القَديمِ الّذي وَقفَ سَدًّا دونَ سعادةِ الأُمّةِ وارْتِقائِها دَهْراً طَوِيلاً، وأَنْ يَتِمَّ على يَدِي مِنْ ذلكَ ما لم يَتِمَّ على يَدِ أحدٍ غَيْرِي من دُعاةِ الحُرِّيَةِ وأَشْيَاعِها، فَعَرَضْتُ الأَمْرَ على زَوْجَتي فَأَكْبَرَتْهُ وَأَعْظَمَتْهُ وَخُيِّلَ إِلَيْها أَنّني جِئْتُها بِنَكبَةٍ من نَكَباتِ الدَّهْرِ أَوْ رَزِيَّةٍ مِنْ رَزَايَاه، وزَعَمَتْ أَنَّها إنْ بَرَزَتْ إلى الرِّجالِ فإِنَّها لا تستطيعُ أَنْ تَبْرُزَ إلى النِّساءِ مِنْ بعدِ ذلكَ حياءً مِنْهُنَّ وخَجَلاً، ولا خَجَلَ هناكَ وَلا حَيَاءٍ ولكنّهُ الموتُ والجمودُ والذُّل الّذي ضَرَبَهُ اللَّهُ على هٰؤلِيَاءِ النِّساءِ في هٰذا البَلَدِ[2] أَنْ يَعِشْنَ في قُبورٍ مُظْلِمَةٍ مِنْ خُدورِهِنَّ حَتَّى يَأْتِيَهُنَّ الموتُ فَيَنْتَقِلْنَ مِنْ مَقْبَرَةِ الدُّنْيا إلى مَقْبَرةِ الأُخْرى، فَلاَ بُدَّ لي أَنْ أَبْلُغَ أُمْنِيَّتي، وَأَنْ أُعالِجَ هذا الرَّأْسَ ٱلْقَاسِيَ المُتَحَجِّرَ عِلاجاً يَنْتَهي بِإِحْدىٰ الحُسْنَيَيْنِ، إِمّا بِكَسْرهِ أَوْ بِشِفائِهِ!.

---

(١) العادي: كالقديم، نِسبةً إلى قبيلة عاد.
قلتُ: وتستعمله العامة بمعنى «المعتاد» وهو خطأ شائع. (ع).

(٢) يعني مصر، فلم تعرفْ مصرُ ـ فضلاً عن غيرها ـ تبرَّجَ النساءِ إلّا عن طريق قاسم أمين.

فَوَرَدَ عَلَيَّ مِن حَديثِهِ ما مَلأَ نَفْسي هَمّاً وَحُزْناً، وَنَظَرْتُ إِلَيْهِ نَظْرَةَ الرَّاحِمِ الرَّاثي، وَقُلْتُ له: أَعالِمٌ أَنْتَ أَيُّها الصَّدِيقُ ما تَقولُ.

قال: نعم، أَقولُ الحقيقَةَ الّتي أَعْتَقِدُها وَأَدِينُ نَفْسِي بها وَاقِعَةً من نَفْسِكَ نُفُوسِ النَّاسِ جَمِيعاً حَيْثُ وَقَعَتْ.

قُلْتُ: هل تَأْذَنُ لِي أَنْ أَقُولَ لكَ إِنَّكَ عِشْتَ بُرْهَةً مِنَ الزَّمانِ في دِيَارِ قَوْمٍ لا حِجَابَ بَيْنَ رِجالِهِمْ وَنِسَائِهِمْ، فَهَلْ تَذْكُرُ أَنَّ نَفْسَكَ حَدَّثَتْكَ يَوْماً مِنَ الأَيَّامِ وَأَنْتَ فِيهِمْ بالطَّمَعِ في شَيْءٍ مِمّا لا تَمْلِكُ يمينُكَ فَنِلْتَ ما تَطْمَعُ فيهِ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرَ مالِكُهُ؟.

قال: رُبّما وَقَعَ لي شَيْءٌ من ذٰلِكَ فَماذا تُرِيدُ؟.

أُريدُ أَنْ أَقولَ لكَ: إِنّي أَخافُ على عِرْضِكَ أَنْ يُلِمَّ به مِنَ الرِّجالِ ما أَلَمَّ بِأَعْرَاضِ الرِّجَالِ مِنْكَ!.

قال: إِنَّ المَرْأَةَ الشَّريفةَ تَسْتَطيعُ أَنْ تَعِيشَ بينَ الرِّجالِ مِنْ شَرَفِها في حِصْنٍ حَصينٍ لا تَمْتَدُّ إِلَيْهِ الأَعناقُ.

فَتَدَاخَلَني ما لم أَمْلِكْ نَفْسي مَعَه وقُلْتُ:

تلكَ هي الخُدْعَةُ الّتي يَخْدَعُكُمْ بها الشَّيْطانُ أَيُّها الضُّعَفاءُ والثُّلْمَةُ الّتي يَعْثُرُ بِهَا في زَوَايا رُؤُوسِكُمْ فَيَنْحَدِرُ منها

إلى عُقولِكُمْ وَمَدارِكِكُمْ فَيُفْسِدُها عَلَيْكُمْ، فَالشَّرَفُ كَلِمةٌ لا وُجودَ لها إلّا في قَوامِيسِ اللُّغَةِ وَمَعاجِمِها، فإنْ أَرَدْنا أَنْ نُفَتِّشَ عنها في قُلوبِ النَّاسِ وَأَفْئِدَتِهِم فإنّا لا نَجِدُها، والنَّفْسُ الإنْسَانيّةُ كالغديرِ الرَّاكدِ لا يزالُ صافياً رائِقاً حتّى يَسْقُطَ فيه حَجَرٌ، فإذا هو مُسْتَنْقَعٌ كَدِرٌ.

وَالْعِفَّةُ لَوْنٌ من أَلْوانِ النَّفسِ، لا جَوْهَرٌ من جَوَاهِرِها، وَقَلَّما تَثْبُتُ الأَلوانُ على أَشِعَّةِ الشَّمْسِ المُتَساقِطَةِ.

قالَ: أَتُنْكِرُ وُجودَ العِفَّةِ بين الناسِ؟.

قلتُ: لا أُنْكِرُها لأَنّي أَعْلَمُ أَنَّها مَوْجُودةٌ بينَ البُلْهِ والضُّعَفاءِ والمُتَعَمِّلينَ(١)، ولكِنّي أُنْكِرُ وُجودَها عِنْدَ الرَّجُلِ الْقادِرِ المُخْتَلِبِ، والْمَرْأَةِ الحاذِقَةِ المُتَرَفِّقَةِ إذَا سَقَطَ مِنْ بينِهما الحِجَابُ وَخَلا وَجْهُ كُلٍّ مِنْهُما لِصَاحِبِهِ!.

في أَيِّ جوٍّ مِنْ أَجْواءِ هٰذا البَلَدِ تُرِيدونَ أَنْ تَبْرُزَ نِساؤُكُمْ لِرِجالِكم أيُّها القومُ؟!.

أَفي جَوِّ المُتَعَلِّمينَ وفيهِمْ مَنْ سُئِل مَرَّةً: لِمَ لَمْ يَتَزَوَّجْ؟ أَجَابَ: نساءُ الأُمّةِ جميعاً نِسائِي!؟.

---

(١) أراد البُسَطاءَ الّذين لم تتغيّر فطرتُهم (ع).

أَمْ في جَوِّ الطُلَبةِ وَفِيهِمْ مَـنْ يَتوارَىٰ عَنْ أَعْيُنِ أَصدقائِهِ حَيَاءَ وَخَجلاً أَنْ عادَ من أُوربّا حامِلاً في مِحْفَظَتِهِ لا أَقَلَّ مِنْ عَشْرِ صُوَرٍ لِعَشِيقاتِهِ، ومائةِ كِتابِ غَرَامٍ مِنْهُنَّ؟!.

أَمْ في جَوِّ المُعَلِّمِينَ وَفِيهِمْ مَنْ يَرَىٰ في ثَمراتِ التَّرْبِيَةِ رَأْيَ المَجوسِ في ثَمَراتِ الأَصْلَابِ؟![1].

أَمْ في جَوِّ الرَّعاعِ وَالْغَوْغـاءِ وَكَثِيرٌ مِنْهُم يَـدْخُلُ البيتَ خادِماً ذَلِيلاً، ويَخْرُجُ منه صِهْراً كَريماً؟!.

وَبَعْدُ:

فَمـا هٰذا الْـوَلَعُ بقصّةِ المرأةِ، والتَّمَـطُّقُ[2] بحدِيثهـا، والقِيامُ والقُعودُ بِأَمْرِهـا، وَأَمْرِ حِجَـابِهَا وَسُفـورِها، وحُرِّيَّتها وَأَسْرِها؟.

كَأَنَّما قَدْ قُمتُمْ بِكُلِّ حَقٍّ واجبٍ لِلأُمّةِ عَلَيْكُمْ في أَنْفُسِكم فَلَمْ يَبْقَ إلَّا أَنْ تُفيضوا مِنْ تِلْكَ النِّعَمِ على غَيْرِكم!.

هَذِّبُوا رجالَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُهَذِّبُوا نِساءَكُمْ، فإِنْ عَجَزْتُمْ عَنِ الرِّجالِ فأَنْتُم عَنِ النِّساءِ أَعْجَزُ.

---

(١) أي أنه لا مكان للخلق بين الناس (ع).
(٢) تمطّق: صوّتَ بلسانِهِ عند استطابةِ الطعام.

أَبْوَابُ الفَخْرِ أَمامَكُمْ كَثِيرةٌ، فَاطْرُقُوا أَيّها شِئْتُم، وَدَعُوا هٰذا البابَ مُوْصِدَاً فَـإِنّكُمْ إِنْ فَتَحْتُمُوهُ فَتحْتُمْ على أَنْفُسِكم وَيْلاً عَظِيماً، وَشَقاءً طَويلاً.

أَروني رَجُلاً واحِداً مِنْكم يَسْتَطِيعُ أَنْ يَزْعَمَ في نفسِهِ أَنّهُ يَمْتَلِكُ هَواهُ بَيْنَ يَدَيْ امرأَةٍ يَرْضَاها فَأُصَدِّقَ أنَّ امْرَأَةً تستطيعُ أنْ تَمْتَلِكَ هَواها بَيْنَ يَدَيْ رَجُلٍ ترضاهُ؟!.

إِنّكُمْ تُكَلِّفـونَ المَرْأَةَ مـا تَعْلَمونَ أَنّكُمْ تَعْجَـزونَ عَنْهُ، وتَطْلُبونَ عِنْدَها ما لا تَجِدُونَهُ عِنْدَ أَنْفُسِكُمْ، فَأَنْتُمْ تُخاطِرونَ بها في مَعْرَكةِ الحياةِ مُخاطَرةً لا تَعْلَمون: أَتَربحونَها مِنْ بَعْدِها أَمْ تَخْسَرونَها؟ وما أَحْسَبُكُمْ إِنْ فَعَلْتُمْ رابِحينَ!.

ما شَكَتِ المَرْأَةِ إِلَيْكُمْ ظُلْماً، ولا تقدمت إِلَيكم طالبةً أَنْ تَحُلُّوا قَيْدَهَا، وَتُطْلِقُوها مِنْ أَسْرِها، فما دُخولُكُمْ بينَها وبينَ نفسِها؟.

وما تَمَضُّغُكُمْ ليلَكُمْ وَنهارَكُمْ بِقَصَصِها وَأَحادِيثها!؟.

إِنّها لا تَشكو إِلَّا فُضولَكُمْ وإِسْفَافَكُمْ، ولُصوقَكُمْ بِها، وَوقُوفَكُمْ في وَجْهِها حيثُما سارَتْ، وأَيْنما حلَّتْ، حَتّى ضاقَ بها وَجْهُ ٱلْفَضاءِ فلم تَجِدْ لهـا سَبيلاً إلا أَنْ تَسْجُنَ نَفْسَهـا

بِنَفْسِها في بيتِها فَوْقَ ما سَجَنَها أهلُها، فَأَوْصَدَتْ مِن دونِها بابَها، وأَسْبَلَتْ أَسْتارَها، تَبَرُّماً بِكُمْ، وفِراراً مِنْ فُضولِكم، فَوَاعَجَباً لكم تَسْجُنونَها بِأَيْدِيكم ثُمَّ تَقِفون على بابِ سِجْنها تَبْكونَها وَتَنْدُبُونَ شَقاءَها.

إِنَّكم لا تَرْثونَ لها بَلْ تَرْثُونَ لِأَنْفُسِكُمْ، ولا تَبْكُونَ عليها بل على أَيَّامٍ قَضَيْتُموها في ديارٍ يَسِيلُ جَوُّها تَبَرُّجاً وَسُفُوراً، وَيَتَدَفَّقُ حُرِّيَّةً واسْتِهْتاراً[1]، وَتَوَدُّونَ بِجَدْعُ الأَنْفِ لو ظَفِرْتُم هنا بهذا الْعَيْشِ الّذي خَلَّفْتُموهُ هناك!.

لقد كُنَّا وكانتِ العِفَّةُ في سِقاءٍ[2] من الحِجابِ مَوْكُوءٍ[3]، فما زِلْتُم بهِ تَثْقُبُونَ في جَوَانِبِهِ كُلَّ يَوْمَ ثُقْباً، والعِفَّةُ تَتَسَلَّلُ منه قَطْرَةً قَطْرَةً حَتّى تَقَبَّضَ[4] وَتَضاءَلَ، ثُمَّ لَمْ يَكْفِكُمْ ذلك مِنْهُ حَتّى جِئْتُمْ الْيَوْمَ تُرِيدُونَ أَنْ تَحُلُّوا وِكاءَهُ حَتّى لا تَبْقَى فيه قَطْرَةٌ واحِدَةٌ.

عاشَتِ المرأةُ المصريةُ حِقْبَةً مِنْ دَهْرِهَا هادئةً مُطْمَئِنَّةً في

---

(١) استهتر: اتبع هواه فلا يُبالي بما يفعل.
(٢) السِّقاء: وعاءُ الماءِ من جلد السَّخلة.
(٣) أوكى القِرْبَةَ: شدّ رأسَها بالوكاءِ، والوكاءُ: الرِّباط.
(٤) تقبّض: يبس.

بَيْتِهـا، رَاضِيَةً عَنْ نَفْسِهـا وعَنْ عَيْشِها، تـرى السَّعادَةَ كُـلَّ السَّعادَةِ في واجبٍ تُؤَدِّيهِ لِنَفْسِهـا، أَوْ وَقْفَةٍ تَقِفُهـا بين يَدَيْ رَبِّها، أَوْ عَطْفَةٍ تَعْطِفُها على وَلَدِها، أَوْ جِلْسَةٍ تَجْلِسُهـا إلى جارَتِها فَتَبُثُّها ذاتَ نَفْسِها، وَتَسْتَبِثُّها سَرِيرةَ قَلْبِها، وترى الشَّرَفَ كُلَّ الشَّرَفِ في خُضوعِها لأَبِيَهـا، وَائْتِمَارِهَـا بِأَمْـرِ زَوْجِها، وَنُزُولِها عِنْدَ رِضاهُما.

وكانَتْ تَفْهَمُ معنى الحُبِّ وَتَجْهَلُ معنى الْغَرَامِ، فَتُحِبُّ زوجَها لأَنّهُ زوجُها، كما تُحِبُّ وَلَدَها لِأَنّهُ ولدُها، فإِنْ رَأَىٰ النِّساءُ غَيرُها أَنَّ الحُبَّ أَساسُ الزواجِ، رَأَتْ هي أَنَّ الزَّواجَ أَساسُ الحُبِّ، فَقُلْتُم لها: إِنَّ هؤلاءِ الّذين يَسْتَبِدُّونَ بِأَمْرِكِ مِنْ أَهْلِكِ لَيْسوا بِأَكْبَرَ مِنْكِ عَقْلاً، وَلا أَفْضَـلَ رَأْيـاً، وَلاَ أَقْدَرَ على النَّظَرِ لَكِ مِنْ نَـظَرِكِ لِنَفْسِكِ، فـلا حَقَّ لهم في هذا السُّلْطانِ الّـذي يَزْعُمـونَه لأَنْفُسِهم عَلَيْـكِ، فازْدَرَتْ أَبـاها، وَتَمَـرَّدَتْ على زَوْجِها، وأَصْبَـحَ البيتُ الّذي كـان بالأَمْسِ عُرْساً مِنْ الأَعراسِ الضاحِكَةِ مَناحةً قائِمةً لا تَهْدَأُ نارُها، ولا يَخبو أُوَارُها[1].

(١) هو شدّة حرّ الشيء. (ع).

وقُلْتُمْ لها: لا بُدَّ لكِ أَنْ تَخْتارِي زَوْجَكِ بِنَفْسِكِ حَتَّى لا يَخْدَعَكِ أَهْلُكِ عن سَعادَةِ مُسْتَقْبَلِكِ فاخْتارَتْ بِنَفْسِها أَسْـوأَ مِمَّا اخْتارَ لها أَهْلُها فلم يَزِدْ عُمْرُ سَعادَتِها على يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ثُمَّ الشَّقَاءُ الطَّويلُ بعدَ ذلك والْعَذَابُ الأَليمُ.

وقُلْتُمْ لها: إِنَّ الحُبَّ أَساسُ الزَّواجِ، فما زالَتْ تُقَلِّبُ عَيْنَيْها في وُجوهِ الرِّجالِ مُصَعَّدَةً مُصَوَّبَةً حَتّى شَغَلَها الحُبُّ عن الزَّوَاجِ!.

وقُلْتُم لها: إِنَّ سعادةَ الَمَرْأَةِ في حَياتِها أَنْ يَكُونَ زَوْجُها عَشِيقَها، وما كانَتْ تَعْرِفُ إِلَّا أَنَّ الزوجَ غيرُ العشيقِ، فَأَصْبَحَتْ تَطْلُبُ في كُلِّ يَوْمٍ زَوْجاً جَدِيداً يُحْيي مِنْ لَوْعَةِ الحُبِّ ما أَمَاتَ الْقَدِيمُ. فلا قَدِيماً اسْتَبْقَتْ وَلا جَدِيداً أفادَتْ[1].

وقُلْتُمْ لها: لا بُدَّ لكِ أنْ تَتَعَلَّمي لِتُحْسِني تَرْبِيَةَ وَلَدِكِ والقِيَامَ على شُؤونِ بَيْتِكِ، فَتَعَلَّمَتْ كُلَّ شَيْءٍ إلَّا تَرْبِيَةَ وَلَدِها والقِيَامَ على شُؤونِ بَيْتِها!.

---

(١) أفاد: بمعنى استفاد.

وقُلْتُمْ لها: إنّا لا نَتَزَوَّجُ مِنَ النِّساء إلاّ مَنْ نُحِبُّها وَنَرْضَاها، وَيُلائمُ ذَوْقُها ذَوْقَنا، وشُعورُها شُعورَنا، فكانَ لا بُدَّ لَهَا أَنْ تَعْرِفَ مَواقِعَ أَهْوائِكُمْ، وَمَسارِحَ أَنْظارِكُمْ، لِتَتَجمَّلَ لَكُمْ بِما تُحِبُّونَ، فَراجَعَتْ فِهْرِسَ أَعْمالِكُم في حياتِكم صَفْحةً صَفْحَةً فَلَمْ تَرَ فيهِ غَيْرَ أَسْماءِ الْخَليعاتِ الْمُسْتَهْتِرَاتِ، والضَّاحِكاتِ اللاَّعباتِ، والإعجابَ بِهِنَّ، والثَّناءَ على ذَكائِهِنّ وفِطْنَتِهِنَّ، فَتَخَلَّعَتْ واسْتَهْتَرَتْ لِتَبْلُغَ رِضاكُم، وَتَنْزِلَ عِنْدَ مَحَبَّتِكُمْ، ثُمَّ تَقَدَّمَتْ إِلَيْكُمْ بِهٰذا الثَّوْبِ الرَّقيقِ الشَّفَّافِ تَعْرِضُ نَفْسَها عَلَيْكُمْ عَرْضاً كما يَعْرِضُ النَّخَّاس[1] أَمَتَهُ في سُوقِ الرَّقيقِ فَأَعْرَضْتُم عنها، وَنَبَوْتُمْ[2] بها.

وَقُلْتُمْ لها: إنَّا لا نَتَزَوَّجَ النِّساء الْعاهِرَاتِ، كَأَنَّكم لا تُبالُونَ أَنْ يَكُونَ نِسَاءُ الأُمَّةِ جَميعاً ساقِطَاتٍ إِذا سَلِمَتْ لَكُم نساؤُكُمْ، فَرَجَعَتْ أَدْرَاجَها خَائِبَةً مُنْكَسِرَةً، وَقَدْ أَباها الْخَليعُ، وَتَرَفَّع عنها الْمُحْتَشِمُ، فَلَمْ تَجِدْ بَيْنَ يَدَيْها غَيْرَ بابِ السُّقوطِ، فَسَقَطَتْ..

وهٰكذا انْتَشَرَتِ الرِّيبةُ في نُفوسِ الأُمَّةِ جَميعِها،

(١) هو بائع الدواب والرقيق (ع).
(٢) ابتعدتم (ع).

وَتَمَشَّتِ الظُّنُونُ بَيْنَ رِجـالِها ونِسَـائِها، فَتَحـاجَزَ الْفَـرِيقَانِ، وَأَظْلَمَ الْفَضَاءُ بينَهما، وَأَصْبَحَتْ الْبُيُوتُ كَالْأَدْيِرَةِ لا يَرَىٰ فيها الرَّائِي إلَّا رِجَالاً مُتَرَهِّبينَ وَنِسَاءً عانِساتٍ.

ذٰلك بُكاؤُكُمْ على الْمَرْأةِ أيها الرَّاحِمُونَ، وهذا رِثاؤُكُمْ لَهَا، وَعَطْفُكُمْ عَلَيها!.

نَحْنُ نَعْلَمُ كَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّ الْمَرْأَةَ في حَاجةٍ إلىٰ الْعِلْمِ فَلْيُهَذِّبها أَبُوها أَوْ أَخُوها، فَالتَّهْذِيبُ أَنْفَعُ لَهَا مَنَ الْعِلْمِ[1]، وإلى اخْتِيَارِ الزَّوْجِ الْعادِلِ الرَّحيمِ، فَلْيُحْسِنِ الآباءُ الاخْتِيَارَ لِبَناتِهِمْ وَلْيُجْمِلِ الأَزْوَاجُ عِشْرَةَ نِسائِهِمْ، وَإِلىٰ النُّـورِ وَالْهَوَاءِ تَبْرُزُ إليهما، تَتَمَتَّعُ فيهما بنعمةِ الْحَياةِ، فَلْيَأْذَنْ لها أَوْليـاؤُها بذٰلِكَ، وَلْيُرَافِقْها رَفِيقٌ مِنْهُم في غَدَوَاتِهَا ورَوْحَاتِهَا كما يُرافِقُ الشَّاةَ رَاعِيها خَوْفاً عليها من الذِّئابِ، فإِنْ عَجَزْنا عن أَنْ نَأْخُذَ الآبـاءَ والأُخْوَةَ والأَزْواجَ بـذلك، فَلْنَنْفُضْ أَيْـدِيَنا مِنَ الأُمَّـةِ جَمِيعِها: نِسَائِها وَرِجَالِها، فَلَيْسَتِ الْمَرْأَةُ بِأَقْدَرَ عَلَىٰ إِصْلاحِ نَفْسِها مِنَ الرَّجُلِ على إِصْلاحِها.

أَعْجَبُ مَا أَعجَبُ له مـن شُؤونكم أَنَّكُم تَعَلَمْتُم كُـلَّ

---

(١) فمهذّبة غير متعلّمة أنفع لنفسها وللأُمة من مُتعلّمة غير مُهذّبة، والجمع بين العلم والتهذيب أَوْلى.

شَيْءٍ إلّا شَيْئاً واحِداً هو أَدْنَىٰ إلىٰ مَدَارِكِكُمْ أَنْ تَعْلَموهُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ أَنَّ لِكُلِّ تُرْبَةٍ نَباتاً يَنْبُتُ فيها، وَلِكُلِّ نَباتٍ زَمَناً يَنْمو فيهِ.

رَأَيْتُمُ الْعُلَماءَ في أُوربَّا يَشْتَغِلونَ بِكَمَالِيَّاتِ العُلومِ بَيْنَ أُمَمٍ قد فَرَغَتْ مِنْ ضَرورِياتِها، فَاشْتَغَلْتُمْ بِها مِثْلَهم في أُمَّةٍ لا يَزالُ سَوَادُها الأَعْظَمُ في حاجةٍ إلى مَعْرِفةِ حُروفِ الهِجاءِ.

وَرَأَيْتُمُ الفَلاسِفَةَ فيها يَنْشُرونَ فَلْسَفَةَ الكُفْرِ بينَ شُعوبٍ مُلْحِدَةٍ، لها مِنْ عُقولِها وآدابِها ما قد يُغْنيها بَعْضَ الغَنَاء عن إيمانِها[1]، فَاشْتَغَلْتُم بِنَشْرِها بين أُمَّةٍ ضَعيفةٍ ساذَجةٍ لا يُغْنيها عن إيمانِها شَيْءٌ.

وَرَأَيْتُمُ الرَّجُلَ الأُوربيَّ حُرًّا مُطْلَقاً يَفْعَلُ ما يَشاءُ وَيَعِيشُ كما يُريدُ لأَنَّهُ يَسْتَطيعُ أَنْ يَمْلِكَ نَفْسَهُ وخُطُواتِهِ في الساعةِ الّتي يَعْلَمُ فيها أَنّه قَدْ وَصَلَ إلىٰ حُدودِ الحُرِّيَّةَ التي رَسَمَها لِنَفْسِهِ فلا يَتَخَطَّاهَا، فَأَرَدْتُمْ أَنْ تَمْنَحُوا هذه الحُرِّيَةِ نَفْسَهَا رَجُلاً ضَعيفَ الإرادةِ والعزيمةِ، يَعيشُ من حياتِه الأدبيّةِ على رَأْسِ مُنْحَدَرٍ زَلِقٍ، فَإِنْ زَلَّتْ بِهِ قَدَمُهُ مَرَّةً انْحَدَرَ مِنْ حَيْثُ لا

(١) وليس بمُغْنٍ!! إلاّ إذا أراد الكاتبُ إيمانَها بدينِها الّذي هو غير الإسلام! (ع).

يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْتَمْسِكَ حَتّى يَبْلُغَ الهُوَّةَ وَيَتَرَدَّىٰ في قَرارَاتِها.

وَرَأَيْتُمُ الزَّوْجَ الأوربيَّ الّذي أَنْضَجَتِ الأَيّامُ رَأْسَهُ، وَأَزَالَتْ خُشونَةَ نَفْسِهِ وحُرْشَتِها[١] يَسْتَطِيعُ أَنْ يرىٰ زَوْجَتَهُ تُخاصِرُ مَنْ تَشاءُ من الرِّجالِ، وتُرافِقُ مَنْ تَشاءُ، وتَخْلو بِمَنْ تَشَاءُ، فَيَقِفَ أمامَ ذلك الْمَشْهَدِ مَوْقِفَ الجامِدِ المُتَبَلِّدِ، فَأَرَدْتُم مِنَ الرَّجُلِ الشَّرْقِيِّ الْغَيورِ المُتَلَهِّب أَنْ يَقِفَ مَوْقِفَهُ، وَيَسْتَمْسِكَ اسْتِمْسَاكَهُ!

وَرَأَيْتُمْ المَرْأَةَ الأُوربيّةَ الجريئةَ المُتَفَتِّيَةَ تَسْتَطِيعُ في بَعْضِ مَوَاقِفِها بينَ الرِّجالِ أَنْ تَحْتَفِظَ بِعِصْمَتِها! فَأَرَدْتُمْ مِنَ المَرْأَةِ المِصْرِيَّةِ الضَّعيفَةِ السَّاذَجَةِ أَنْ تَبْرُزَ للرِّجالِ بُروزَهَا، وَتَحْتَفِظَ بِنَفْسِها احْتِفَاظَها!

وَكُلُّ نَبَاتٍ يُزْرَعُ في أَرْضٍ غَيْرِ أَرْضِهِ، أَوْ ساعَةٍ غَيْرِ ساعَتِهِ، إِمّا أَنْ تَأْبَاهُ الأَرْضُ فَتَلْفِظَهُ، وَأَمَّا أَنْ يَنْشَبَ فِيهَا فَيُفْسِدَها.

إِنَّا نَضْرَعُ إِلَيْكُمْ باسْمِ [خَالق الأَرْضِ والسَّماءِ، وَنُذَكِّرُكُمْ][٢] بِالشَّرَفِ الْوَطَنِيِّ وَالْحُرْمَةِ الدينيّةِ أَنْ تَتْرُكوا تلك

---

(١) هي بمعنى الخشونة أيضاً (ع).
(٢) ما بين معكوفتين زيادة لا بدّ منها في السياق (ع).

البقيَّةَ الباقيَةَ مِنْ نِسَاءِ الأُمَّةِ آمِناتٍ مُطْمَئِنَّاتٍ في بُيُوتِهِنَّ، ولا تُزْعِجوهُنَّ بِأَحْلامِكُم وَآمالِكُمْ كَما أَزْعَجْتُمْ مَنْ قَبْلَهُنَّ.

فَكُلُّ جُرْحٍ مِنْ جُروحِ الأُمَّةِ له دَوَاءٌ إِلَّا جُرْحَ الشَّرفِ، فَلا دَواءَ له، فإِنْ أَبَيْتُمْ إِلَّا أَنْ تَفْعَلوا! فَانْتَظِرُوا بِأَنْفُسِكُمْ قليلاً رَيْثَما تَنْتَزِعُ الأَيّامُ مِنْ صُدورِكم هٰذهِ الْغَيْرَةَ الّتي وَرِثْتُمُوهَا عَنْ آبائِكُمْ وَأَجْدادِكُمْ لِتَسْتَطِيعوا أَنْ تَعِيشُوا في حَيَاتِكُمْ الجدَيدةِ سُعَداءَ آمِنينَ.

فَمَا زَادَ الْفَتىٰ عَلَى أنِ ابْتَسَم في وَجْهي ابْتِسامَةَ الهُزْءِ والسُّخْرِيَةِ، وقال:

تلكَ حَماقاتٌ ما جِئْنا إِلَّا لِمُعَالَجَتِها، فَلْنَصْطَبِرْ عَلَيها حَتّى يَقْضِيَ اللّهُ بَيْنَنا وَبَيْنَها.

فَقُلْتُ له: لَكَ أَمْرُكَ في نَفْسِكَ وفي أَهْلِكَ، فاصْنَعْ بِهِمَا ما تَشاءُ وَائْذَنَ لي أَنْ أَقُولَ لَكَ: إِنّي لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَخْتَلِفَ إِلَيْكَ[1] بعدَ اليومِ إِبْقاءً عَلَيْكَ وَعَلَىٰ نَفْسي لأَنّي أَعْلَم أَنَّ السَّاعَةَ الّتي يَنْفَرِجُ لي فيها جانبُ سَتْرٍ مِنْ أَسْتَارِ بيتِكَ عَنْ وَجْهِ امْرَأَةٍ من أَهلِكَ تَقْتُلُني حَياءً وَخَجَلاً.

---

(١) أي: أزورك (ع).

ثُمَّ انْصَرَفْتُ وكانَ هٰذا آخِرَ ما بَيْنِي وبينَه.

وَمَا هي إلَّا أيامٌ قلائلُ حَتّى سَمِعْتُ النّاسَ يَتَحَدَّثُونَ أَنَّ فُلاناً هَتَكَ السِّتْرَ في مَنْزلِهِ بينَ نِسَائِهِ وَأَصْدِقائِهِ، وَأَنَّ بَيْتَه قَدْ أَصْبَحَ مَغْشِياً لا تَزالُ النِّعالُ خافِقةً ببَابِهِ.

فَذَرَفَتْ عَيْني دَمْعَةً لا أعْلَمُ: هَلْ هِيَ دَمْعَةُ الغَيْرَةِ على العِرْضِ المُذالِ[1]، أو الحُزْنِ على الصَّديقِ المَفْقُود؟!!.

مَرَّتْ على تلكَ الحادثةِ ثَلاثةُ أَعْوامٍ لا أَزورُهُ فيها ولا يَزُورُني، وَلَا أَلْقاهُ في طريقهِ إلَّا قَليلاً فَأُحَيِّيهِ تَحِيَّةَ الْغَرِيبِ لِلْغريبِ مِنْ حَيْثُ لا يَجْرِي لِمَا كان بَيْنَنَا ذِكْرٌ ثُمَّ أَنْطَلِقُ في سَبيلي.

فإنّي لَعَائِدٌ إلى مَنْزلي ليلةَ أَمْسٍ، وَقَدْ مضى الشَّطْرُ الأَوّلُ من اللَّيْلِ إذْ رَأَيْتُهُ خارِجاً مِنْ مَنْزِلِهِ يَمْشي مَشْيَةَ المُضْطَرِبِ الحائِرِ، وَبِجانِبِهِ جُنْدِيٌّ مِنْ جُنودِ الشُّرْطَةِ، كَأَنّما هو يَحْرُسُهُ أَوْ يَقْتَادُهُ، فَأَهَمَّني أَمْرُهُ، وَدَنَوْتُ مِنْهُ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ شأنِهِ؟.

فقال: لا عِلْمَ لي بِشَيْءٍ سِوى أنَّ هذا الجُنْدِيَّ قد طَرَقَ

(١) المُهان. (ع).

السَّاعةَ بَابِي يَدْعونَي إلىٰ مَخْفَرِ الشُّرَطةِ، وَلا أَعْلَمُ لِمثْلِ هٰذهِ الدَّعْوَةِ فِي مِثْلِ هٰذهِ السَّاعَةِ سَبباً، وَمَا أَنَا بالرَّجُلِ المُذْنِبِ وَلا المُريبِ، فَهَلْ أَسْتَطيعُ أَنْ أَرْجُوكَ - يا صَديقي الْقديمُ - بَعْدَ الّذي كان بَيْني وَبَيْنَكَ أَنْ تَصْحَبَني اللَّيْلةَ في وَجْهي هٰذا، عَلَّني أَحْتَاجُ إلى مَعونَتِكَ فيما قد يَعْرِضُ لِي هُناكَ مِنَ الشُّؤونِ؟.

قُلْتُ: لا أَحَبَّ إِلَيَّ مِن ذٰلكَ؟.

وَمَشَيْتُ مَعَه صامِتاً لا أُحَدِّثُهُ، ولا يُقولُ لي شَيْئاً، حتىَّ شَعَرْتُ كَأَنَّهُ يُزَوِّرُ[1] في نَفْسهِ كَلاَماً يُريدُ أَنْ يُفْضيَ بهِ إِلَيَّ فَيمْنَعُهُ الخَجَلُ والْحَيَاءُ، فَفاتَحْتُهُ الحدَيثَ وقلتُ له:

أَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَتَذَكَّرَ لِهٰذهِ الدَّعوةِ سَبَباً؟.

فَنَظَر إِلَيَّ نَظْرَةً حائِرةً وقَال: إِنَّ أَخْوَفَ ما أَخافُهُ أَنْ يَكُونَ قد حَدَثَ لِزَوْجَتي الليلةَ حادِثٌ مُؤْلِمٌ، فَقَدْ رَابَني مِنْ أَمْرِها أَنَّها لم تَعُدْ إلى مَنْزِلِها حَتّى الساعةَ، وما كان ذٰلك شَأْنَها مِنْ قَبْلُ!.

قُلْتُ: أَمَا كانَ يَصْحَبُها أَحَدٌ؟.

قال: لا.

---

(١) زَوّر الكلام في نفسه: هَيّأه.

قُلْتُ: أَلَا تَعْلَمُ المكانَ الّذي ذَهَبَتْ إِلَيْهِ؟.

قال: لا.

قُلْتُ: وَمِمَّ تَخافُ عليها؟.

قالَ: لا أَخافُ شَيْئاً سِوىٰ أَنّي أَعْلَمُ أَنّها امْرَأَةٌ غَيورٌ حَمْقاءُ، فَلَعَلَّ بَعْضَ النَّاسِ حاوَلَ الْعَبَثَ بِهَا في طَريقِها فَشَرِسَتْ عَلَيْهِ فَوَقَعَتْ بينَهما وَاقِعَةٌ انتهى حَديثُها إلى رِجال الشُّرَطةِ.

وَكُنّا قد وَصَلْنا إلى المَخْفَرِ، فَاقْتادَنا الْجُنْدِيُّ إلى قاعةِ المَأْمُورِ، حَتّى صِرْنا بينَ يَدَيْهِ، فَأَشَارَ إلى جُنْدِيٍّ أَمامَه إِشارةً لَمْ نَفْهَمْها، ثُمّ اسْتَدنى الفَتى إِلَيْهِ، وقال لـه: يَسُوؤني يا سَيّدي أَنْ أَقولَ لك: إِنَّ رِجالَ الشُّرَطةِ قَدْ عَثَروا اللَّيْلَةَ في مكانٍ مِنْ أَمْكِنَةِ الرِّيبَةِ على رَجُلٍ وامْرَأَةٍ في حالٍ غَيْرِ صَالِحَةٍ فاقْتادُوهُما إِلى المَخْفَرِ، فَزَعَمَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ لَهَا بِكَ صِلَةً، فَدَعَوْناكَ لِتَكْشِفَ لنا الْحَقِيقَةَ في أَمْرِها، وَأَمْرِ صاحِبِها، فَإِنْ كانَتْ صَادِقَةً أَذِنّا لها بالانْصِرافِ مَعَكِ: إِكْراماً لَكَ، وَإِبْقَاءً على شَرَفِكَ، وَإِلَّا فَهِيَ امْرَأَةٌ فاجِرَةٌ لا نَجاةَ لَهَا مِن قانُونِ الفاجِرَاتِ، وهَا هُما وَراءَكَ فانْظُرْهُما.

وكانَ الجُنْدِيُّ قد جاءَ بِهِما مِنْ غُرْفَةٍ أُخرىٰ، فَنَظَرَ، فإذَا المرأةُ زَوْجَتُهُ، وإِذَا الرَّجُلُ أَحَدُ أَصْدقائِهِ.

فَصَرَخَ صَرْخَةً رَجَفَتْ لها جَوَانِبُ الْمَخفَرِ وَمَلأَتْ نَوَافِذَهُ وَأَبْوابَهُ عُيوناً وآذاناً، ثُمَّ سَقَطَ فِي مكانِه مَغْشِيّاً عَلَيهِ.

فَأَشَرْتُ على المَأْمُورِ أَنْ يُرْسِلَ الْمَرْأَةَ إِلىٰ مَنْزِلِ أَبيها، فَفَعَل، وَأَطْلَقَ سَبِيلَ صَاحِبِها، ثُمَّ حَمَلْنا الْفَتىٰ في مَرْكَبةٍ إِلى مَنْزِلِهِ، وَدَعَوْنا الطَّبِيبَ، فَقَرَّرَ أَنـهُ مُصابٌ بِحُمّىٰ دِماغيّةٍ شديدةٍ، ولَبِثَ سَاهِراً بجانبِهِ بقيّةَ اللَّيْلِ يُعالِجُهُ، حَتّى دَنَا الصَّبْحُ، فانْصَرفَ الطَّبِيبُ على أَنْ يَعُودَ مَتَى دَعَوْناه، وعَهِدَ إِلَيَّ بِأَمْرِهِ، فَلَبِثْتُ بِجَانِبِهِ أَرْثي لحالِهِ، وَأَنْتَظِرُ قَضَاءَ اللَّهِ فيِهِ، حتّى رأيتُهُ يَتَحرَّكُ في مَضْجَعِهِ، ثُمَ فَتَحَ عَيْنَيْهِ، فَرآني، فَلَبِثَ شاخِصَاً إِلَيَّ هُنَيْهَةً كَأَنّما يُحاوِلُ أَنْ يَقُولَ لي شَيْئاً، فلا يَسْتطيعُه، فَدَنَوْتُ مِنْه، وقُلتُ:

هَلْ من حاجةٍ يا سيِّدي؟.

فأَجابَ بصوتٍ ضعيفٍ خافِتٍ: حاجَتي أَنْ لا يَدْخُلَ عَلَيَّ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ.

قُلْتُ: لن يَدْخُلَ عليك إلاّ مَنْ تُريدُ.

فَأَطْرَقَ هُنَيْهَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فإِذا عَيْناه مُبْتَلَّتَانِ بالدُّموع.

فقلتُ: ما بُكاؤُكَ يا سيّدي؟.

قَالَ: أَتَعْلَمُ أَين زَوْجَتي الآنَ؟.

قُلْتُ: وَمَاذَا تُرِيدُ منها؟.

قال: لا شَيْءَ سِوَى أَنْ أَقولَ لها: إِنّي عَفَوْتُ عنها.

قُلْتُ: إِنّها في بَيْتِ أَبيها.

قال: وَارَحْمَتاه لها، وَلأَبيها، وَلِجَميعِ قَوْمِها، فَلَقَدْ كانوا قَبْلَ أَنْ يَتَّصِلُوا بي شُرَفاءَ أَمْجاداً، فَأَلْبَسْتُهُمْ مُذْ عَرَفوني ثَوْباً مَنَ الْعَارِ لا تَبْلوهُ الأَيّامُ.

مَنْ لي بِمَنْ يُبَلِّغُهُمْ عَنّي جَميعاً أَنّي رَجُلٌ مَرِيضٌ مُشْرف[1]، وَأَنّني أَخْشَى لِقَاءَ اللَّهِ إِنْ لَقِيتُهُ بِدِمَائِهِمْ، وَأَنّني أَضْرَعُ إِليهم أَنْ يَصْفَحوا عَنّي، وَيَغْتَفِروا ذَنْبي، قَبْلَ أَنْ يَسْبِقَ إِلَيَّ أَجَلي.

لَقَدْ كُنْتُ أَقْسَمْتُ لأَبيها يَوْمَ اهْتَدَيْتُها[2]، أَنْ أَصُونَ عِرْضَها صِيَانَتي لِحَيَاتي، وَأَنْ أَمْنَعَها مِمَّا أَمْنَعُ مِنْهُ نَفْسي، فَحَنِثْتُ في يَميني فَهَلْ يَغْفِرُ لي ذَنْبي فَيَغْفِرَ لِيَ اللَّهُ بِغُفْرانِهِ؟!.

---

(١) أي اقترب موتي وأَجَلي (ع).

(٢) اهتدى الرجلُ امرأته جمعها إليه وضمّها.
قلت: أي تزوّجها (ع).

إنّها قَتَلَتْني، وَلكنّي أَنا الّذي وَضَعْتُ في يَدِها الخِنْجَرَ الّذي أَغْمَدَتْهُ في صَدْري، فَلا يَسْأَلْها أَحْدٌ عن ذَنْبي!.

البَيْتُ بَيْتي، والزَّوْجَةُ زَوْجَتي، والصَّديقُ صَديقي، وَأَنا الّذي فَتَحْتُ بابَ بَيْتي لِصَديقي إلى زَوْجَتي، فَلَم يُذْنِبْ إلَيَّ أَحَدٌ سِوايَ.

ثُمَّ أَمْسَكَ عَنِ الْكَلَامِ لَحْظَةً، فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ، فإذا سَحابةٌ سَوْدَاءُ تَنْتَشِرُ فَوْقَ جبينهِ شَيْئاً فَشَيْئاً، حَتَّى لَبِسَتْ وَجْهَهُ، فَزَفَرَ زَفْرَةً خِلْتُ أَنَّها أنها خَرَقَتْ حِجابَ قَلْبِهِ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقولُ:

آهٍ ما أَشَدَّ الظَّلَامَ أَمَامَ عَيْنَيَّ، وَمَا أَضْيَقَ الدُّنيا في وَجْهي، في هٰذِهِ الغُرْفَةِ، على هٰذا المَقْعدِ، تحتَ هذا السَّقْفِ، كنتُ أَراهُما جَالِسَيْنِ يَتَحَدَّثانِ، فَتَمْتَلئُ نَفْسي غِبْطَةً وَسُروراً، وَأَحْمَدُ اللَّهَ على أَنْ رَزَقَني بِصَديقٍ وَفِيٍّ يُؤْنِسُ زَوْجَتي في وَحْدَتِها، وَزَوْجَةٍ سَمْحةٍ كريمةٍ تُكْرِمُ صَديقي في غَيْبَتي، فَقُولوا للنّاسِ جَميعاً: إنَّ ذَلِكَ الرجُلَ الّذي كانَ يَفْخَرُ بالأُمْسِ بِذَكَائِهِ وفِطْنَتِهِ وَيَزْعُمُ أَنَّهُ أَكْيَسُ النَّاسِ وَأَحْزَمُهُمْ، قَدْ أَصْبَحَ يَعْتَرِفُ اليَوْمَ أَنّه أَبْلَهُ إلى الغايةِ من البلاهةِ، وغَبِيٌّ إلى الغايةِ التي لا غايةَ وَراءَها!.

وَالهَفَاً على أُمٍّ لَمْ تَلِدْني، وَأَبٍ عَاقِرٍ لاَ نَصِيبَ لهُ في البَنِينَ!.

لَعَلَّ الناسَ كانوا يَعْلَمُونَ مِنْ أَمْرِي ما كُنْتُ أَجْهَلُ، وَلَعَلَّهُمْ كانوا إذا مَرَرْتُ بِهِم يَتَنَاظَرونَ وَيَتَغَامَزونَ، وَيَبْتَسِمُ بَعْضُهم إلى بعضٍ أو يُحَدِّقونَ إليَّ وَيُطيلونَ النَّظَرَ في وَجْهي لِيَرَوا كيفَ تَتمثَّلُ البَلاهَةُ في وُجوهِ البُلْهِ، والغَبَاوَةُ في وُجوهِ الأَغْبِيَاءِ.

وَلَعَلَّ الذّين كانوا يُطِيفَون[1] بي، وَيَتَوَدَّدُونَ إِلَيَّ مِن أَصْدقائِي إنَّما كانُوا يَفْعلونَ ذُلك مِنْ أَجْلِها لا مِنْ أَجْلي، ولَعَلَّهم كانُوا يُسَمُّونَني فيما بَيْنَهم وبينَ أَنفُسِهم قَوَّاداً[2]، ويُسَمُّون زَوْجَتِي مُومِساً[3]، وبَيْتِيَ مَاخُوراً[4].

فَوَارَحْمَتاه لي إنْ بَقِيتُ على ظَهْرِ الأَرْضِ بَعْدَ اليومِ ساعَةً وَاحِدةً، وَوَالَهفاً على زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايا قَبْرٍ عَميقٍ يَطْوِيني ويَطْوِي عَارِيَ مَعِي.

---

(١) أي: يقتربون منّي ويتردّدون حَوْلي (ع).
(٢) هو الرجلُ الذي يرضى لأهلهِ الفاحشة (ع).
(٣) هي العاهرة (ع).
(٤) الماخور: بيت الريبة.

ثُمَّ أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ وَعَادَ إلى ذُهولِهِ وَاسْتِغْراقِهِ.

وهُنا: دَخلتِ الحُجْرَةَ مُرْضِعُ وَلَدِهِ تَحْمِلُهُ على يَدِهَا، حَتّى دَنَتْ بهِ مِنْ فِرَاشِهِ، فتَركَتْهُ وَانْصَرَفتْ.

فَمَا زَالَ الطِّفْلُ يَدُبُّ على يَدَيْهِ حَتّى عَلا صَدْرَ أَبِيهِ، فَأَحسَّ بهِ فَفَتَحَ عَيْنَيْهِ، فرَآهُ، فَابْتَسَمَ لِمَرْآهُ، وَضَمَّهُ إِلَيْهِ ضَمَّةَ الرِّفْقِ وَالْحَنَانِ، وَأَدْنى فَمَهُ مِن وَجْهِهِ كَأَنّما يُريدُ أَنْ يُقَبِّلَهُ، ثُمَّ انْتَفَضَ فَجْأَةً، وَاسْتَسَرَّ بِشْرَهُ[1]، وَدَفَعَهُ عنه بِيَدِهِ دَفْعاً شَدِيداً فَانْكَفَأَ على وَجْهِهِ يَبْكي وَيَصِيحُ، وقال:

أَبْعِدُوهُ عَنِّي، لا أَعْرِفُهُ، لَيْس لي أولادٌ ولا نِسَاءٌ، سَلُوا أُمَّهُ عَنْ أَبيهِ! أَيْنَ مكانُه؟ واذْهَبوا بهِ إليهِ، لا أَلْبَسُ العارَ في حَيَاتي وَأَتْرُكُهُ أَثَراً خالِداً وَرَائِي بَعْدَ مَمَاتي.

وَكَانَتِ المُرْضِعُ قَدْ سَمِعَتْ صِيَاحَ الطِّفْلِ فَعَادَتْ إليهِ وَحَمَلَتْهُ وَذَهَبَتْ بِهِ.

فَسَمِعَ صَوْتَهُ وَهُوَ يَبْتَعِدُ عَنْهُ شَيْئاً فَشَيْئاً، فَأَنْصَتَ إِلَيْهِ وَاسْتَعْبَرَ بَاكِيَاً، وَصَاحَ:

أرجعوه إِلَيَّ.

---

(١) أي أخفى انبساطه بِوَلَدِهِ (ع).

فَعادَتْ بِهِ المُرْضِعُ، فَتَناوَلَه مِنْ يَدِها وَأَنْشَأَ يُقَلِّبُ نَظَرَهُ في وَجْهِهِ ويقولُ:

في سبيلِ اللَّهِ يا بُنَيَّ ما خَلَّفَ لك أَبُوكَ مِنَ اليُتْمِ، وَمَا خَلَّفَتْ لك أُمُّكَ مِنَ العارِ، فاغْفِرْ لَهُما ذَنْبَهما إِلَيْكَ، فَلَقَد كانَتْ أُمُّكَ امْرَأَةً ضعيفةً فَعَجَزَتْ عَنِ احْتِمالِ صَدْمَةِ الْقَضَاءِ فَسقَطَتْ، وكان أَبُوكَ حَسَنَ النِّيَّة فِي جَريمتهِ الّتي اجْتَرَمَها، فَأَسَاءَ مِنْ حَيْثُ أَرادَ الإِحْسَانَ.

سَوَاءٌ أَكُنْتَ وَلَدي يا بُنَيّ أَوْ وَلَدَ الْجَريمةِ، فَإِنْي قد سَعِدْتُ بِكَ بُرْهَةً مِنَ الدَّهْرِ، فَلاَ أَنْسَى يَدَكَ عِنْدي حَيّاً أَو مَيْتاً!.

ثُمَّ احْتَضَنَهُ إِلَيْهِ وَقَبَّلَهُ فِي جَبينهِ قُبْلَةَ، لا أَعْلَمُ: هَلْ هِيَ قُبْلَةُ الأَبِ الرَّحيمِ، أَوِ الرَّجُلِ الكَريمِ!.

وَكَانَ قَدْ بَلَغَ مِنْـهُ الجَهْدُ، فَعَـاوَدَتْهُ الْحُمَّى، وَغَلَتْ نَـارُهَـا في رَأْسِهِ، وَمَا زَالَ يَثْقُلُ شَيْئاً فَشَيئاً حَتّى خِفْتُ عليه التَّلَفَ، فَأَرْسَلْتُ وَرَاءَ الطَّبيبِ، فَجَـاءَ وَأَلْقَىٰ عَلَيْهِ نَـظْرةً طَويلةً، ثُمَّ اسْتَرَدَّها مَمْلوءَةً يَأْساً وَحُزْناً.

ثُمَّ بدأ يَنْزِعُ نَزْعاً شَدِيداً وَيئِن أَنيناً مُؤْلِماً، فَلَمْ تَبْقَ عَيْنٌ مِنَ العيُونِ المُحيطةِ بهِ إِلَّا ارْفَضَّتْ عَنْ كُلِّ ما تَسْتَطِيعُ أَنْ تَجُودَ بهِ مِنْ مَدَامِعِها.

فَإِنَّا لَجُلُوسٌ حَوْلَه، وَقَدْ بَدَأَ الْمَوتُ يُسْبِلُ أَسْتَارَهُ السَّوْدَاءَ حَوْلَ سَرِيرِهِ، وَإِذَا بِآمْرَأَةٍ مُتَّزِرَةٍ بِإِزَارٍ أَسْوَدَ قَد دَخَلَتِ الْحُجْرَةَ وَتَقَدَّمَتْ نَحْوَه بِبُطْءٍ حَتَّى رَكَعَتْ بِجَانِبِهِ، ثُمَّ أَكَبَّتْ على يَدِهِ الْمُمْتَدَّةِ فَوْقَ صَدْرِهِ فَقَبَّلَتْها، وَأَخَذَتْ تَقُولُ لَه:

لا تَخْرُجْ مِنَ الدُّنْيا وَأَنْتَ مُرْتابٌ فِي وَلَدِكَ، فَإِنَّ أُمَّهُ تَعْتَرِفُ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَأَنْتَ ذَاهِبٌ إلى رَبِّكَ تَسْأَلُهُ عَنْ قَوْلِها أَنَّها وَإِنْ كانَتْ دَنَتْ مِنَ الْجَرِيمَةِ فَإِنَّها لَمْ تَرْتَكِبْها، فَاعْفُ عَنِّي يا وَالِدَ وَلَدي، وَاسْأَلِ اللَّهَ عِنْدَما تَقِفُ بَيْنَ يَدَيْهِ أَنْ يُلْحِقَني بِكَ فَلَا خَيْرَ لي في الْحَيَاةِ مِنْ بَعْدِكَ..

ثُمَّ انْفَجَرَتْ باكِيَةً، فَفَتَحَ عَيْنَيْهِ، وَأَلْقَى عَلَى وَجْهِهَا نَظْرَةً باسِمَةً كانَتْ هِيَ آخِرَ عَهْدِهِ بالحياة، وقَضَى.

* * *

الآنَ عُدْتُ مِنَ المَقْبَرةِ بَعْدَ ما دَفَنْتُ صَدِيقي بِيَدي، وَأَودَعْتُ حُفَرَةَ الْقَبْرِ ذَلك الشَّبَابَ النَّاضِرَ، والرَّوْضَ الزَّاهِرَ.

وَجَلَسْتُ لِكِتَابةِ هٰذِهِ السُّطورِ، وَأَنَا لا أَكَادُ أَمْلِكُ مَدَامِعي وَزَفَرَاتي، فلا يُهَوِّنُ وَجْدي عليهِ إلَّا أَنَّ الأُمَّةَ كانَتْ على بابِ خَطَرٍ مِنْ أَخْطارِها فَتَقَدَّم هو أَمامَها إلى ذَلكَ الخَطَرِ وَحْدَه، فَاقْتَحَمَهُ، فَمَاتَ شَهِيداً بَيْن يَدَيْها، فَنَجَتْ بِهَلاكِهِ.

[تَمَّتْ]



حجابك أيتها المرأة

أملٌ ونعمة لا ألمٌ ونقمة

